المسيحيّة والإسلام
تصورات متخيّلة ورهانات سياسية

ابراهيم محمود

(يؤمن المسلمون والمسيحيون في العمق بإله واحد، يقيمون له الشعائر، ويحاولون التعرف إليه بالروح وبالحقيقة. غير أن فهمهم لهذا الإله يختلف كثيراً إلى حد يصعب معه القول بأنهم يتكلمون عن الإله نفسه)

تيريز ـ آن درووار

هذا الموضوع/ الإشكال:

تستهدف هذه الدراسة، إلقاء الضوء على المسيحية ـ الإسلام، من خلال عدة نقاط، هي:

1 ـ إنّ المسيحية ـ الإسلام، دينان، يشتركان في الأصل، واختلافهما هو في تنظيم الأولويات.

2 ـ وأن المسيحية ـ الإسلام، زُحزحا كثيراً من مواقعهما. بل إن ما تعرضا له من تصورات، غَيَّرَ من بنيانهما النظري. لكنني أوكد أن الفضاء اللاهوتي لهما، لا يستوعب إلاّ ناسوتياً.

3 ـ وأن ما بينهما من توتر ونفور، على صعيد المشاعر، والرؤى، ترسمه وضعيتهما الاجتماعية والسياسية والثقافية، إضافة إلى الأرضية التاريخية لهما.

4 ـ ولعل التصورات المتخيَّلة والرهانات السياسية، التي تدفع بكل منهما في مسار الدوغمائيات والإكراهات النفسية، والالتفاف على الحقيقة، وإلحاق السماوي بالأرضي، وتغليب المادي المبتذل كطقس شرّع له، على

المثالي، أو القيمي المنشود، هي التي اختزلتها، في (أركيولوجيا الحياة اليومية)، وبدرجات متفاوتة، وغير ثابتة، في عالم كل منهما، وهي بذلك ولذلك، ستحتل الحيز الأكبر من دراستنا.

ولعلنا لا نبتغي من دراستنا هذه، لا التوفيق بين الديانتين، أو التقريب بينهما، باعتماد لغة تلفيقية، وإنما محاولة مقاربة الأيديولوجي، في كل منهما، ومن ثم رفع الحجاب عما هو حدثي، وإشكالي ممارسةً، باستنطاق التاريخ السياسي والثقافي لكل منهما، ومن منظور أنطولوجي ـ قدر المستطاع ـ حيث يسمح لنا هذا المنظور، بمقارنة المشكل، والمتوتر، وعمليات الخداع المعرفي، والمخاتلة النقدية، وبهرجة الحقائق النفسية، ودون أن يعني ذلك، ادعاء الموضوعية التامة، بالنسبة لكاتب هذه السطور، الذي لا ينكر تأثير التربية الاجتماعية والمدرسية والمذهبية في عملية البحث المعرفية عن موضوع ما، وفيه.. وليس بوسع أيٍّ كان، إنكار ذاتية القول، أو الكتابة، خاصة في موضوع حساس كهذا...

1 ـ المسيحية ـ الإسلام: انزياحات مستمرة!

المسيحية ـ الإسلام، ديانتان سماويتان. وقد كتبناهما هكذا، لإعطاء كل منهما كيانه الخاص، وليس هكذا (المسيحية والإسلام)، للابتعاد عن أية علاقة عطفية بينهما. إنهما ككيانين، يسمحان لنا بإثارة أفكار كثيرة، ورسم تصورات عديدة، تخصهما. يظهران عبرها متفاعلين ومتداخلين مع بعضهما بعضاً، ويلغيان أي علاقة من علاقات أحدهما تجاه الآخر.

وقولنا: إنهما ديانتان سماويتان؛ إشارة إلى منبعهما الواحد. إنه منبع ألوهي، لا يمكن الوصول إليه.. ويصبح الدين هنا تعبيراً عن علاقة غير متكافئة بين إلٰه متعال، لا يُرى، ولا يمس، ولا يحدد مكانياً أو زمانياً، ثابت، أزلي، خالق لكل شيء، وكائن محدود القوة، يتعرض لمتغيرات عدة تؤثر في كيانه العضوي، ومنظومته المعرفية، وسلوكه اليومي، لا يطيل على الأرض، هو الإنسان الذي يشعر بضآلة حجمه في كون يستحيل استيعابه في وساعته ومجاهيله.. ولهذا تكون حاجته إلى ذلك الإلٰه المتعالي ضرورة أنطولوجية وسيكولوجية ـ كما

يبدو ـ فهي التي تمهد لخلق معنى ذي قيمة لدى المؤمن، وتدشّن لحياة ليست مجانية. . .

وكأن الإنسان في هذه العلاقة يعيش النسبي، لينتقل إلى المطلق، ويعيش المتغير، ليعايش الثابت، ويسكن الخلود، إذا كان صالحاً، مخلصاً في أعماله، وفيما يقول صادقاً. نعم، المسيحية ـ الإسلام، يفصحان عن سماويتهما، وعن الكثير من المشتركات التي تجمع فيما بينهما ـ ولعل مثل هذا الاشتراك في سماوية المرجع، يسمح بالتقارب فيما بينهما أكثر، خاصة وأننا نشاهد الكثير من الضغوط والإكراهات المادية والمعنوية، تُمارس هنا وهناك، للفصل بينهما، وكأنهما لا يمتان إلى بعضهما بعضاً بصلة ما، حيث يجيّر الناسوتي اللاهوتي المتمذهب لصالحه. أن نعرف، أن (الله في نظر المسلم والمسيحي على السواء، كائن متعال (Transcendent). أن نقول إنه كائن متعالٍ هو أن نقول، على الأقل، إنه لا يمكن إسناد أية محمولات زمانية إليه. فهو بحكم تعاليه كائن غير متجسد وغير متغير بصورة مطلقة. ولكن الله، مع ذلك، يشكل في نظر المؤمن، مسيحياً كان أم يهودياً أم مسلماً، كائناً فاعلاً في العالم (Agent)[1]. أن نعرف، يعني ذلك وجود احتمال/أو إمكانية ممارسة الضغط على (النفس اللوامة)، أو (الموسوسة)، والتحكم فيها، وإخضاعها سلوكاً أو حركةً لسلطة العقل، والتفكير في ما يعنيه مثل هذا القول بـ (كائن متعال) لدى المسيحي والمسلم معاً، الذي من أولى علاماته، هي أنه يدفع بنا للتحرك معاً، وبإرادة عقلية واحدة، للاستماع إلى صوت هذا الكائن المتعالي، الذي لم يخفت في ضمير كل مؤمن مسيحياً كان أم مسلماً، وأن يتحول إرث التباغض إلى إرث التوادد خاصة عندما نرى، كيف أن العالم يضيق بسكانه، لا لأنه لم يعد يسعهم، وإنما لأن غلبة هوى المصالح المادية، والعمى النفسي، على الرضى النفسي والانضباط العقلي، هي التي جعلته هكذا. . .

(1) ضاهر، عادل: تأملات في مفهوم الفعل الإلهي، في مجلة (مواقف) العدد (63)، ص 90.

ولعل الانطلاق من أمثلة ملموسة، أو من نصوص، لا تخفي إخلاصها الإنساني المشترك، لذلك الكائن المتعالي، الذي قد يفسِّر تفاسير كثيرة، وفي النهاية، يبقى مجسداً لكل ما هو مفارق للإنسان، كقوة لا تخضع لمتغيرات المكان، وحروف الزمان، وملازم له، باعتباره الكائن في العالم برغبته، دون أن يكون الكائن فيه بقوة خارجة عنه، ويصبح بالنسبة لدى المؤمن المعنى الحقيقي، ليعيش عبره ومعه؛ فلعل الانطلاق من ذلك يقربنا من هدفنا أكثر. . .

إن المقالة التي كتبتها (تيرنر ـ آن درووار) الأميركية، وهي تحمل شهادة في الدراسات الشرقية، وتشغل منصب سكرتيرة في الجمعية الفلسفية الكاثوليكية الأميركية، عن إلٰه المسيحيين وإلٰه المسلمين، تشكل علامة مضيئة، مشجعة لنا، للاقتراب من المنبع العلوي المشترك لكل منهما، خاصة عندما تبتدىء مقالتها هكذا (لا يكتفي المسيحيون والمسلمون بالإعلان عن الحقيقة الآتية: «ليس هناك سوى إلٰه واحد»، ولكن البعض منهم لا يتردد في التضحية بحياته في سبيل الدفاع عن هذه الحقيقة. . .)[1].

ولعل حديثها عما هو مشترك بين الديانتين، وخاصة فيما يتعلق بالقول، بأن هناك الإلٰه الواحد الخالق، الخالق لكل شيء من العدم والقادر على كل شيء. . . إلخ، يساهم مساهمة فعالة في التقريب بين المؤمنين مسيحيين ومسلمين، وتصبح الاختلافات أقل من أن تذكر. . .

ولعل قولها الأخير (يؤمن المسلمون والمسيحيون في العمق بإلٰه واحد، يقيمون له الشعائر، ويحاولون التعرف إليه بالروح وبالحقيقة. غير أن فهمهم لهذا الإلٰه يختلف كثيراً إلى حد يصعب معه القول بأنهم يتكلمون عن الإلٰه نفسه. بيد أن الله نفسه، وهو العليم بأسرار القلوب والحدود الإنسانية، يتقبل بمحبته التي لا تحدّ كل الذين يبحثون عنه بإخلاص. و«الله أكبر»، على حد تعبير إخواننا المسلمين)[2]، يشكل دافعاً أقوى لتحريك المشاعر وتوجيه

---

(1) آن، درووار ـ تيريز: إله المسيحيين وإله المسلمين هل هما فعلاً إله واحد؟ في مجلة (مواقف)، العدد (68)، 1992، ص 56.

(2) المصدر نفسه، ص 61.

الأحاسيس، وتليين الإرادة المتعنتة لدى هذا الطرف أو ذاك، للالتقاء معاً. ما دامت هناك قوة تلهم، وتمتلك الإمكانات الكبرى، لجعل العالم أنقى وأصفى...

فما جرى ويجري، من توترات أو تشنجات في السلوك اليومي، وداخل المنظومة اللغوية، وعمليات التفكير، وحتى على صعيد التصورات الحياتية، والعلاقات الاجتماعية، لدى المسيحي أو المسلم، يعود إلى أن ما ينطلق منه الفرد، أو حتى هذا الطرف أو ذاك، غالباً ما يكون ذا أرضية دنيوية مصلحية، تلونه النوازع النفسية، وتضع (الآخر) الذي ينتمي إلى دين آخر، في مرتبة الخصم، وهو في جوهره ندُّه إنسانياً، وأخوه في الأصل، وشريكه في الحياة، وفي علاقته بالكائن المتعالي.

ولعل خلود طرف ما، إلى الراحة النفسية، وإلى الصفاء النفسي، ومحاولة الدفاع عن ذلك، يعود إلى تلك العلاقة التي يقيمها مع ذلك الكائن المتعالي، ويتخذه سلطة داخلية، فيكون الإنسان بامتياز.. ولعل عبارة (الدين لله، والوطن للجميع) ذات صدى كوني، وتمتلك الكثير من الدلالات والرموز القيمية العظمى...

فهي تعني من جهة أن الدين يخص الله، وهذا يعني أن الناس هم إخوة في الدين، وأنه ليس هناك ثمة داعٍ للاختلاف حول ذلك، ما دام إلٰههم واحداً، وأن العالم الذي يضمهم فيه، ملكهم جميعاً...

وتعني من جهة ثانية، أن من الضروري العودة باستمرار إلى الأصل، أصل الإنسان. فالإنسان هو واحد. وليس هناك من يستطيع إثبات تفوق شخص على آخر، في جنسه، أو من خلال مذهبه، وليس هناك من يرفض مبدأ أن كل الناس من آدم، وآدم من تراب. فهناك إذاً الأخوّة الواحدة، والأب الواحد، بل والمادة الواحدة التي منها خُلقوا، وبث فيها الروح، وإليها يعود الجميع...

وتعني من جهة ثالثة ضرورة تجاوز وسوسات النفس، وكل الاستعلائيات التي يستغل عبرها، ويضطهد شخص ما، شخصاً آخر، أو فئة ما، فئة أخرى، أو جماعة ما، جماعة أخرى، على أساس اختلاف لون البشرة،

أو موروفولوجية الجسم، أو المعتقد، أو المعتنق الديني، وما دام الجميع محكومين بسلطة الموت، وأن هذا الموت هو واحد، وبوسعه أن يكون الملهم الأكبر لهم، ليتقاربوا ويتوادوا، فالتراب الذي يضمهم هو واحد، وظلمات الأعماق الأرضية واحدة... إلخ.

وتعني من جهة رابعة ضرورة الدفاع عن سلطة الكائن المتعالي، تلك التي تشكل القيمة الكبرى، لضبط النفس، أو النفوس، ومكافحة الشرور، أو أنواع الاستقلال، ما دام (الكل) متفقين، أن ليس هناك من يستطيع الادعاء أن الله يأمر بالطغيان ويدعو إليه، ويستثني البعض من الحساب، ويُبارك البعض لأنه يمتلك امتيازات، وجدت معه منذ الولادة، مهما كانت طبيعة هذه السلطة، في تشكلها، على الصعيد القانوني. وضرورة النظر إلى العالم بوصفه وطن الجميع، وكما أن هناك من يدافع عن عائلته، أو أسرته، إذا داهمها وباء معين، ويحاول تحصين بيته وتجميله، هكذا تكون علاقته مع العالم، ومع الآخرين داخل هذا العالم...

وضمن هذا المنظور، يمكن القول أن ما يثار هنا وهناك، وينشر من دراسات مختلفة، وبلغات متنوعة، حول ما إذا كان (عيسى الناصري) ابناً لله أم لا، وما إذا كان النبي محمد نبياً أم لا، وتلقَّى الرسالة من الله أم لا[1]، هو الذي يخدم ما هو مختلف، وما يدفع العالم إلى أن يزداد ضيقاً بأهليه، ويجعل (أبناء آدم) هابيليين وقابيليين، أعداء لدودين لبعضهم بعضاً، بدلاً من التفكير، في أن كلاً منهما، هو نبي، وأنه لم يظهر للناس، ليتحكم بهم، ويؤسس لسلطة اعتبارية، تخص جماعة دون أخرى، وأن صوت المحبة هو الذي يتقدمهما، المحبة في معناها الإنساني الأعمق، لا المحبة التي تدفع هذا الطرف أو ذاك، ممن يعتبر نفسه منتمياً إلى هذا النبي أو ذاك، قومياً أو دينياً، لجعله رأسمالاً رمزياً سلطوياً، أو امتيازاً تاريخياً، من خلاله يتعالى على الغير.

(1) هذا الهم الإنساني والاجتماعي والثقافي، شغل ذهن (محمد اركون)، وتحدث عنه مطوَّلاً، ويمكن الاستفادة منه، في كتابه (العلمنة والدين: الإسلام - المسيحية - الغرب)، دار الساقي، لندن، ط 1990.

2 ـ المسيحية ـ الإسلام: زحزحة المواقع القيمية:

لا يمكن فك المسيحية ـ الإسلام، من النصوص التي كتبت في ضوئهما، ومن المواقع المجتمعية، أو الاجتماعية التي تجليا خلالها وعبرها، أو تجريدهما من فضاء المجتمعي والثقافي والسياسي. . فإذا كانت الديانتان سماويتين، ويمكن ربطهما، من حيث السلطة المرجعية بالكائن المتعالي (الله) فهما في جوهرهما، لا تُستوعبان إلا أرضياً، فصورة السماء تُرى في مرآة الأرض، وحقيقة الله، تستوعب من خلال ذهن بشري. بل الله نفسه ككائن يسكن المطلق، لا يستوعب مهما اختلفت التصورات والرؤى، وتفاوتت قيمياً، لا يتعامل معه إلا بوصفه مواجهاً لكائن آخر، أرضي، لا ينفصل عنه، حتى على صعيد التشبيه، وإن اختلفت العلامات الفارقة. هكذا يتعالى السماوي على الأرضي، لكنه يكتسب معناه، وتشع دلالاته، ويتأصل حضوره أرضياً، ويبرز المطلق متوقفاً زمانياً ومكانياً على النسبي، ولكنه لا يفهم إلا من خلال النسبي، ويفهم الأزلي من خلال الآني، واللانهائي يتحدد في النهائي، والمجهول على أساس المعلوم، والديني هنا يُفهم بوصفه سيمياء الحضور للكائن المتعالي وأركيولوجيا المعنى المجسد لما هو متجاوز للإنسان: دلالة وعلامة وقيمة، وهو بعد كامن في الإنسان، لأنه يلخص الآني والمحدود والمتحول فيه، ويبث فيه تصورات عن الأبدي واللانهائي والثابت. فهو إذاً وجه من وجوه حقيقته التي لا يراها، إنما يشعر بها في الملمات، أو عندما يتأمل حقيقته كإنسان محصور بين موتين: موت هو العدم، قبل ولادته وموت هو ارتحال في العدم، حيث يختفي عن الوجود بعد حياة محددة. . هكذا تظهر العلاقات بين ما هو مطلق وما هو نسبي، ما هو مجهول وما هو معلوم، ما هو ألوهي وما هو بشري. وهذا يعني أنه (لا يمكن للإنسان أن يعبّر عن نداء الألوهية فيه، إلا بكلام إنساني ينطلق به شخص معين، في زمن معين، وينتمي إلى قوم مخصوصين يتكلمون بلغتهم الخاصة، ولهذا لا مناص من أنسنة الوحي الإلهي على يد الإنسان)[1].

(1) حرب، علي: نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1993، ص 67.

غير أن الأنسنة هذه، وبوصفها أنسنة، ليست متشابهة، إنها تفصح عن مجموعة حقائق، تصل إلى حد التناقض فيما بينها أحياناً، وهي بدورها حقائق قابلة للمد والجزر ومتحولة.. ويعني ذلك أنه من الوهم تماماً تصور المسيحية ـ الإسلام، كديانتين مجردتين من تاريخيتهما، ولذلك يمكن القول أنه لكل ديانة رغم منبعها الألوهي السماوي فضاؤها الاجتماعي، ومنظومتها الثقافية، ومسرحها السياسي، ومساراتها الأدبية والفكرية والفنية، وأرضيتها المعتقدية، وموسوعتها التاريخية والإعلامية، وتصوراتها عن الإنسان والعالم، عن الحياة والموت... إلخ. ويغدو الله: الواحد الأحد، منقسماً على ذاته، بل محاطاً بالكثير من المعاني الخاصة والمتخيَّلة. ولا يكون هنا إله المسيحيين والمسلمين، وغيرهم، وإنما يكون إله المسيحيين بامتياز، وذلك بالاعتماد على إثارة أفكار، وإحياء معتقدات، وخلق تصورات ماضوية، وإضفاء صفة القداسة، دون نسيان إيجاد وتكوين ذاكرة مجتمعية مذهبية، وظيفتها تلبية النداءات الخادمة لمثل هذه الحقائق المبتغاة ـ أو إله المسلمين وحدهم. ليس هذا فقط، إنما إله طائفة معينة داخل الدين الواحد نفسه، أو جماعة، هكذا تتنامى الزحزحات للمفاهيم الدينية! ووفقاً لهذا التصور، أو المنظور، يمكننا استيعاب حركية هذه الزحزحات للمفاهيم الدينية، على أرضية الواقع، فيغدو الله الواحد الأحد، الكلي القدرة، محمولاً بصفات، وحاملاً لعلامات فارقة، ليست موجودة، بشكل متساو عند جميع المؤمنين به: مسيحيين كانوا أم مسلمين.

وعلى هذا الأساس تُفهم تلك الانقسامات والرضات والتوترات المعنوية واليومية، ومتغيرات الأفكار في الأذهان، عبر تلك القنوات اليومية التي يصرَّف من خلالها الديني، معبراً عن الحدثي.. ومن جهة أخرى، نجد إله المسيحيين مجملاً، أو محمّلاً بصفات، نابعة من تصورات لحظية، ومناسباتية، وصدامية مع الواقع الخارجي، ومع الذات، ومن مواقف حاسمة (في الشدائد مثلاً)، يختلف بها، عن الإله الذي يتصوره المسلمون. إن كل فريق، يسعى إلى إعطاء، أو تحميل (إلهه) ما يجعله الأقرب إلى الرغبة النفسية، والتصور الذهني، والمبتغى الأيديولوجي كذلك. ولهذا نجد من السهولة كيف أن كلاً منهما يستقطب أتباعاً له، ومتشيعين، أو أنصاراً، بل

دعاة له، حيث يتحول الدين في نصوصه، التي تحمل طابعها الإلهي، إلى أيديولوجيا، يُفسَّر عبْرها الماضي، ويؤول الحاضر، ويرى بها المستقبل. ليس هذا فقط، بل نجد كل طائفة، أو جماعة، في الدين الواحد نفسه، تحمّل الله صفات، يكون عبرها الأكثر قرباً منها، وكأنه وفق ذلك يقف إلى جانبها، وتكون هي (الفئة الناجية) أو (الفرقة الناجية) ويكتسب كل ذلك مشروعية مواجهة تجاه الآخرين، ممن يُعتبرون خصوماً لها، أو مختلفين عنها!

هكذا يكون الدين الواحد حمّال أوجه، ومسرحاً لتصورات متناقضة...

وبقدر ما يتقادم عليه الزمن، يكتسب صفات، وملامح، ويُغذّى بتصورات جديدة، تبعده قليلاً أو كثيراً عن الأصل. فالأصل لا يبقى محافظاً على هويته، على نقائه، وجِدته الأولى، إنما يخضع لسلسلة لا نهاية لها من التقييمات والتركيبات الفكرية والفنية، وتتراكم عليه الصور، والمفاهيم، بحيث تزيد في حجبه عن معناه، وتخضع الأصل لهيمنة الملاحَظ والمتجلي، ويخضع الموقع لسلطة الموضع، وتُمارَس فيه أشكال تحوير وتجيير لنصوصه الأولى.

واكتسب الظاهري، أو المتجلي، والمدفوع به من التصورات والأحكام والتفاسير إلى السطح، قيمة الأصل، ثم اعتبر الأصل مفهوماً من خلال اللاحق عليه، وتأطر العقل، ثم تحول في إثر ذلك، وبفعل عملية القسر التاريخي والسلطوي، إلى آلة تعيد إنتاج مفاهيمها، وتتجدد كما هي، بل تتهيكل مع الزمن أكثر، وتصبح كل محاولة اختراق بمثابة هرطقة يُعاقب صاحبها عليها. وخاصة بعد أن وظّف الدين لخدمة الدنيوي، والمصالح الفئوية الضيقة (وهكذا دُبّجت الرسائل الثيولوجية والأدبيات الغزيرة التي لا تزال تسيطر علينا حتى اليوم. وهكذا دخلنا في مرحلة المماحكات الجدالية واللاهوتية السكولاستيكية). والتركيبات التبولوجية اللاهوتية قد تحولت إلى أرثوذكسيات ضيقة وابتعدت عن التعاليم المركزية التي توحد في الواقع بين الأديان الثلاثة، وذلك في ما يخص احترام كرامة الإنسان ورفع مستواه[1]، كما يقول (محمد

(1) اركون، محمد: الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق: هاشم صالح، دار الساقي، لندن، ط 1990، ص 319.

أركون) بحق! والإكراهات المادية والمعنوية، ثم محاولة إدخال الناس بالعنف إلى (حظيرة) الدين، موجودة في كلا الجانبين، وضمن فترات متقطّعة، خاصة عندما تحول الدين إلى (عصا غليظة)، وأداة تهديد معنوية مِنْ قبل مَن يعتبرون أنفسهم أوصياء على هذا الدين أو ذاك، ضد الذين ينتمون إلى دين آخر. وليس بوسع (ممثلي) هذا الدين أو ذاك، الادعاء أن الأصل في الدين، لم يتزحزح من موقعه، وأن عالمه هو أفضل العوالم وأكثرها أمناً...

(فعملية القتل والاضطهاد (أي قتل غير «المؤمنين») قد حصلت في كلا السياقين المسيحي والإسلامي في العصور الوسطى. وقد جرت مجازر وحشية كالتي حصلت للبروتستانت في فرنسا الكاثوليكية، وأقيمت محاكم التفتيش ولوحق المفكرون الأوروبيون في كل مكان. واضطروا للتستر والاختفاء عن الأنظار وتغيير مساكنهم أكثر من مرة كما حصل لديكارت نفسه)[1].

ومثل هذه الحالة موجودة في التاريخ العربي ـ الإسلامي، فالعديد من المفسرين والكتّاب أو الأدباء قد لوحقوا، وتعرضوا للتعذيب والقتل، باسم الدين في الغالب الأعم، كما في حال (معبد الجهني، وجهم بن صفوان، وغيلان الدمشقي، وأبو حنيفة، وابن حنبل، والطبري، وابن رشد... إلخ).

3 ـ المسيحية ـ الإسلام: أرضية الصراعات المتنامية:

ليس هناك دين، لا ترتبط به سلسلة من الصراعات، مختلفة في مرجعيتها. هناك صراعات شتى، تحتد وتشتد، نابعة من القاع المجتمعي، لتؤكد تأزيم الوضع الاجتماعي والسياسي والتاريخي، ولا بد من التحول، وضرورة تجلي واقع آخر، مختلف في علاماته الاجتماعية والسياسية، صراعات تمهد لظهور هذا الدين أو ذاك، حيث لا يعود بالإمكان الاستمرار وفق ما هو معاش. فالعلاقات الاجتماعية تتفكك، والقيم الرمزية تفقد بريقها الأيديولوجي، أو تصبح مستهلكة، والمسرح المجتمعي لم يعد قادراً على الاستمرار، محتفظاً بالأدوار المسرحية السابقة. وصراعات ترافق هذا الدين، لتؤكد صدامية الجديد

(1) المصدر نفسه، ص 334.

بالقديم، أو القديم بالجديد، وحصول تفاعل بينهما سلباً أم إيجاباً، وصراعات تنشأ باستمرار، لأن هناك دائماً ما هو جديد، يتطلب مواجهةً معه، أو اتخاذ وضعية مناسبة لاستيعابه، وصراعات داخلية وخارجية، نابعة من طبيعة الموقف الديني نفسه، ومن طبيعته. فالدين ليس مجموعة نصوص نظرية فقط، إنما هو علاقات متصوَّرة، يُرمى إلى تجسيدها، وسلوك يُبتغى تداوله في الواقع، وسلع رمزية (تتعلق بمجموعة قيم)، تصيغها الوضعية الجديدة، يسعى إلى الترويج لها. إضافة إلى أن كل ما قلناه، لا يمكنه أن يتحقق بعيداً عن حماة يدافعون عنه، وكتبة يروّجون لمبادئه، وكتّاب يفلسفون له، وأدباء يعبرون عنه بأساليب مختلفة، ومؤدلجون... إلخ. والمسيحية والإسلام، كديانتين سماويتين ليستا بعيدتين عن مثل هذه التصورات. حيث لا يمكن فهم العلاقات فيما بينهما، وأشكال المشاحنات المختلفة، خارج أرضية هذه الصراعات.. تُرى كيف تم ويتم تقديم كل منهما، من خلال هذه المشاحنات، وعلى أرضية الصراعات تلك؟ يقول الدكتور (رضوان السيد): (إن التمايز الخارجي بين الأمم؛ والتمايز الداخلي بين الفئات داخل الأمة الواحدة ساعد على بلورة قضايا الصراع على السلطة وحولها)[1].

وهذا يعني أن هذا التمايز لم يكن ليتم - في الأساس - دون وجود أرضية تمهّد لذلك، وبعيداً عن الصراعات. فالتمايز يستند إلى شعور بالذات، والشعور بالذات هنا، تذكير بحقيقة الوجود الاثني لكل جماعة، إضافة إلى الإحساس بالاختلاف عن الآخرين، واكتشاف الهوية التي تخص كل أمة. ولكن شيئاً من هذا، لا يمكن أن يحصل دون منغّصات، دون مشاحنات، حيث العلاقات الاجتماعية متداخلة، ومحاولة تأكيد الذات، لا يمكن لها أن تتم دون مقاومة، وتقديم تضحيات، واستعداد لمواجهة صدامات. وتوجيه الصراع، واستثماره بالتالي، يستندان إلى مَرْكزة القوة. ووفقاً لهذا التصور، وجد الإسلام، الذي تمركز على أساس عصبي قبلي. فـ (قريش) كانت القوة الحاملة للإسلام،

(1) السيد، رضوان: الأمة والجماعة والسلطة، «دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي»، دار إقرأ، بيروت، ط 1986، ص 36.

وأساسه المتين. لأن (قريش) كانت تمتلك إمكانات القوة المادية والمعنوية الكافية لجعْل الدين الجديد، ديناً معترفاً به لاحقاً. وهذا الدين لم يبزغ من داخل قريش، إلا لأن الوضع الاجتماعي والسياسي كان مهيئاً لذلك، ولم يُكتب لهذا الدين الانتشار، إلا لأن قريش كانت تمتلك (رأسمالاً رمزياً) ـ كما يقول أحد الكتّاب المعاصرين، يشمل القيم والثقافة التي من شأنها مسرحة الحدث، وإضفاء طابع شرعي عليه، وبقي الإطار العصبي للإسلام صفة مميزة له. ألم يقل الدكتور (رضوان السيد) لاحقاً، حول ذلك: (إن قريشاً في المدينة الجديدة ستبقى هي قريش، وسيبقى لها تضامنها العشائري الداخلي، كما أن بطون الأوس والخزرج ستبقى بطوناً في الأوس والخزرج. كل ما في الأمر أن النبي كان يتخطى العصبية محاولاً تشذيبها وتوجيهها بحيث تقبل العيش في إطار سياسي واحدة لا يلغيها بل يوازنها وينظم علائقها بعضها ببعض وبالعالم الخارجي على أن تبقى العصبية ذاتها عماد التضامن الداخلي، وعلى أن يُمثّل الإسلام فكروية الإطار السياسي)[1]؟

ولكن العصبية لم تمح، بل بقيت العلامة الفارقة في الإسلام. فكم من صراع مشهده الإسلام، وخاصة في بداياته، سببه: العصبية. هكذا كان منطق العصر. وكانت الضغوط الجانبية والداخلية التي تتم داخل كل قبيلة، معبّرة عن نوع من التشارك في المعاناة، أو بالحالة الاجتماعية والنفسية، توحد ما بين الرؤى والتصورات. ولكن الانتماء العصبي ظل علامة فارقة في الإسلام. والإسلام كنظام سياسي، لم يكن بعيداً عن حقيقة هذا الانتماء الاجتماعية والسياسية والثقافية. ورغم أن عصبية القبيلة تحولت إلى عصبية الدين، إلا أن الارتباط السيكولوجي والذاتي والكينوني بالعصبية (الأصل): عصبية القبيلة، بقي كامناً في الأعماق، حيث كان يعبر عن حقيقته وقت الملمات. وعندما كان الصراع يشتد. وهكذا نجد كيف أن (السلطة التي قامت خلال العصور الإسلامية الأولى تعبّر عن واقع العلاقات القبلية ما بين العرب أولاً وما بينهم والشعوب الداخلة تحت الفتح، بحسب قانون الولاء الذي تطور إلى ولاء الإسلام

(1) المصدر نفسه، ص 54.

كإيديولوجيا تتشخص في ذاتية الحاكم)[1]. ونتيجة ذلك (لم يستطع الإسلام السياسي قديماً أن يتحول إلى حزب مجتمعي، بل إلى أحزاب شعائرية طقسية، تخضع لقانون التطويف، أي إلى أدوات أيديولوجية صوفية أو باطنية بيد العصبية الطائفية أو الاتنية. تختفي وراء شكلانية عالمية الإسلام، وتحتمي بسلطان الانتماء للمغيوب)[2].

وتبرز مسألة عصبية الدين في الإسلام، من خلال النظرة إلى أبناء الديانات الأخرى، وتجلت عصبية الدين هذه، انطلاقاً من عصبية القبيلة، في التقليل من قيمة الآخر. فالقبيلة التي اعتزَّت بأناها المركزية، ودافعت عنها، امتد موروثها العصبي إلى داخل الإسلام، وخاصة في النظرة إلى من لم يدخل الإسلام، واكتسب مشروعية واضحة، من خلال إضفاء طابع ديني قداسوي عليها، وما ترتب عليها من نتائج. ونجد بسهولة كيف تحولت آية (لا إكراه في الدين) إلى (إكراه في الدين)، عبر هذه العلاقة. فالآية هذه، لم تجيء اعتباطاً بل كانت تعلم مسبقاً أن هناك إكراهات، ونزلت في محاولة لتجنب العنف، والدعوة إلى الدين الجديد (الإسلام) دون إكراه. والعصبية التي تحورت لونت هذه العلاقة بين أبناء أهل الكتاب، بحيث صار كل طرف يتعصب لدينه. وأصبح (إن الدين عند الله الإسلام) لدى المتحمسين له، والمسكونين بجذوة العصبية هكذا: إنما الإنسان هو من أسلم، دون أن يفقد هذا الصراع طابعه العصبي القبلي، والإثني كذلك. ولذلك بوسعنا العثور على عشرات الأمثلة، التي يكون فيها الآخر، أي غير المسلم، موضوعاً للكاتب الإسلامي، يُكتب عنه، ويُتخيَّل بطريقة يبرز فيها أدنى مستوى، من شخصية الإنسان المسلم، وذلك بالاعتماد على صياغة مفردات وجمل، لا تخلو من عنف واضح[3].

---

(1) صفدي، مطاع: السلطة تحت أسمائها الضائعة، في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 33، 1984 ـ 1985، ص 9.

(2) المصدر نفسه، ص 14.

(3) أنظر مثلاً، ما يقوله حول ذلك (ابن حزم)، في: الفصل في الملل والأهواء والنحل، المجلد، الجزء الثاني، دار المعرفة، لبنان، طبعة 1983، ص 2 ـ 75.

فالإسلام السياسي، لم يبخل بإعطاء (أبنائه) كل ما يلزم لجعْل دينهم أرقى الأديان، واعتبار الإسلام؛ الدين الذي لا دين سواه، على أكثر من صعيد، لا على أساس أن هذا الدين يكمل بقية الأديان السابقة عليه، وأنه مبني على العدل والحكمة والمحبة والأخوة العالمية، وعالمية النسب (كلكم لآدم)، وإنما على أساس تزييف حقيقة الآخر (غير المسلم)، واعتباره كافراً، أو مرفوضاً اجتماعياً لأنه ليس مسلماً! فكان إفراز القصورات والحالات النفسية، والثقافة المؤدلجة الداعمة لهذه التصورات الإسلاموية، كبيراً وقوياً، لم يتوقف نشاطه حتى يومنا هذا، وبوسعنا القول أنه كلما لوحظ تنام في التخلف، وبروز إسلام شكلاني غير منتج، يُلاحظ بالمقابل تنامي نشاط هذه الإفرازات التي تُظهِر الإسلام مجرَّد دين، أو عقيدة وليس معاملة (إنما الدين المعاملة)، أو سلوكاً أخوياً تواصلياً مع (الآخر). . لكن المسيحية لم تأل جهداً، من خلال ممثليها والمتشيعين لها، أو أنصارها، في محاولات متكررة منها، تصوير الإسلام باعتباره ديناً بـ (الوكالة) لا بـ (الأصالة)، «إن جاز التعبير» وأنه نسخة مشوهة عن المسيحية، بل صوّر على أكثر من صعيد، بمثابة شقاوة الابن وتمرده على أبيه، والإساءة إليه. فالإسلام الذي ظهر في مجتمع وبيئة، كان للمسيحية فيها حضور واضح: حضور مادي ومعنوي. وانتشار الإسلام، في مثل هذه الحالة، عنى تنافساً لـ (الأب): الدين (الأصل)، واختراقاً لسلطانه، وتقليلاً لقيمته، ومحاصرة لنفوذه. ولهذا لا نستغرب وجود آيات كثيرة، يُذكر فيها النصارى، حيث يُخاطَبون، أو يُناقَشون، ويجادلون، انطلاقاً من هذه العلاقة الحساسة، وخاصة حول طبيعة المسيح، وحقيقته ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا﴾[1]. بل نجد لدى الكثيرين، ممَّن قرأوا القرآن قراءة حرفية، نصية ظاهرة، من المسيحيين، تشدداً في

(1) القرآن (4/ 171).

الموقف تجاه الإسلام، وتعصباً للمسيحية، ومحاولة إبراز شخصية المسيح، ومنحها بعداً تأليهياً، وتأجيج الصراع، بوصفه يخدم الدين، ويعزز من موقعه، بدعوى أن القرآن نفسه اعترف بألوهية المسيح (هو روح الله) أو (كلمته)، وهذا يعني أنه أقرب إلى الله أكثر من أي نبي آخر...

ولعل مثل هذه الحقيقة المتصوَّرة والمتخيَّلة، لا تزال تلهم الكثيرين من المتحمسين الأصوليين في المسيحية.. رغم أن (غي مونّو) الذي استشهدنا به سابقاً، يقول حول هذه المسألة (وبحسب تعابير إحدى الدراسات المعمَّقة في هذا الإطار، يستنتج الأب أوشوغينسي ما يلي: «ينتج عن هذا كله، وبوضوح، أن صفة [«الكلمة» الإلهية] أطلقت على يسوع في القرآن عن طريق تسمية طارئة (...) فعبارة «كلمة» بما هي تعبير عن عمل إلهي أقنومي لم ترد أبداً في ذهن مؤسس الإسلام بالمعنى الذي تحمله». وسيبين الكاتب نفسه أن النصوص المسيحية المنتشرة في شبه الجزيرة العربية في القرنين السادس والسابع، كانت تعتبر، في أغلب الأحيان، أن «الكلمة» هي الأمر الخالق، أو ما يأخذ في القرآن الشكل الآتي: «كن»... إلخ)[1].

وحقيقة الصراعات التي أوجدت لها قنوات كثيرة، وتجذرت في الذاكرة الجماعية لكل من المسيحي والمسلم، ليست حديثة العهد، وهي ـ على كل حال ـ تخفت وتحتد، حسب الحالات المعاشة، والمتحولات المجتمعية، والمتغيرات السياسية، وطبيعة العلاقات فيما بينها. ولكن ما يبدو واضحاً، وتاريخياً، هو الآتي: (ترجع صعوبة التفاهم بين المسيحية والإسلام إلى زمن قديم. فالإسلام هو الدين الوحيد الذي أوقف انتشار الدين المسيحي في القرن السابع الميلادي. ومن ثم يفهم سبب زعم البابا أنسون الثالث بأن الرسول محمداً كان ضد المسيح...)[2].

(1) مونّو، غي: الإسلام وما ليس هو، في مجلة (مواقف)، العدد 68 المذكور، ص 48.

(2) إيتن، شارل: الإسلام ومصير الإنسان، في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 84 ـ 85، 1991، ص 38.

ولعل هذا القول يتوضح أكثر، عندما ندقق في طبيعة العلاقة بين الديانتين: فالإسلام انتشر في بيئة شهدت تأثير المسيحية الواضح فيها، ومن جهة أخرى (وهذا هو الأهم) كانت الأمبراطورية البيزنطية المسيحية تماماً، تشكل وقت سطوع نجم الإسلام، القوة المؤثرة في المنطقة وفي العالم آنذاك (ولا ننسى هنا حضور الديانة اليهودية وسلطتها آنذاك، ولكن ذلك لا يهمنا هنا)، وكان تجلي الإسلام يشكل في جوهره، بالنسبة للبيزنطيين، ومن معهم تحدياً لهذه القوة الضاربة في المنطقة.. ولنا أن نتصور كثافة المادة الإعلامية، وطبيعة التصورات الموجَّهة التي وجدت، في مواجهة الإسلام كقوة منافسة! ومن الطبيعي أو المألوف أن تنطلق هذه المادة الإعلامية، وتنتظم حول محورين أساسيين، يشكلان حقيقة الدين الإسلامي: القرآن، الذي يقابل النظام الداخلي لأي حزب، والنبي محمد، باعتباره الممثل الوحيد لهذا الدين، ومجسده، وحامل رايته الأول، الذي يقابل القائد الأول في أي حركة، ثم مسؤولها الأول. ومن هنا ندرك حجم وكثافة المواد التي أُلّفت حول هذين المحورين، وأرادت النيل منهما.

إن (مونّو)، يوضح لنا ذلك بقوله (لقد شكل نشوء الإسلام بالنسبة إلى المسيحيين، بدءًا من الشرق، سبباً للتعجب ومادة للتفكير: من أين أتت هذه الحركة الدينية الجديدة؟ فالشرق الهليني لم يكن يفتقر إلى الحركات الدينية. ولقد بدت هذه الأخيرة، أمام أعين البيزنطيين، كما لو أنها رؤوس عديدة نبتت مثلما تنبُتُ البدع. وانطبقت هذه النظرة المألوفة والملائمة على الإسلام، كأنما المسألة بدعة جديدة جاءت ممزوجة بتأثيرات يهودية. ونجد هذا التفسير لدى الكتّاب المسيحيين، وباللغة اليونانية في بادىء الأمر، ثم ظهر بالسريانية والعربية في وقت لاحق)[1].

وما يجب أن يُذكر هنا ـ من وجهة نظرنا طبعاً ـ هو أن الدين الأسبق ظهوراً، هو الذي يترسخ في الأذهان أكثر، ويؤدي ذلك إلى تثبيت شبكة واسعة وعميقة من

(1) مونو، غي: في المصدر المذكور، ص 47.

المفاهيم التي تؤكد قدمه وقيمته في الأذهان هذه، وتصبح الأسبقية الزمنية بمثابة شهادة حسن سلوك أفضل، وقدم وظيفي تيولوجي أعرق، وتكتسب خبرة أوسع وأكثر في هذا المجال، حيث أن الدين الجديد الذي يليه، ويكمله، لا بد أن يتضمن بعض مؤثراته، وهذا من شأنه زيادة الدعم المعنوي لأتباع الدين القديم، وتنامي حدة المواجهة بين أتباع الدينين: بين أولئك الذين يحاولون أن يمنحوا سبقاً تاريخياً، وقيمة كبرى لدينهم، لأنهم الأقدم عهداً، منطلقين من تلك المؤثرات، التي تخص دينهم، وتكون موزعة في ثنايا الدين الجديد، وأولئك الذين يتشيعون للدين الجديد، ويستميتون في الدفاع عنه، لاعتباره الأقدم عهداً هنا، بل الأكثر كمالاً من سابقه، دون إلغائه.. هكذا كانت نظرة اليهود إلى المسيحية، والمسيحيين إلى الإسلام، وهكذا كان دفاع المسيحيين، عن دينهم، وردهم على اليهود، ودفاع المسلمين عن دينهم، وردهم على المسيحيين عند اشتداد الصراع.. حيث كان الصراع هذا يتجلى على صعيدين متداخلين: صعيد الحياة اليومية وصعيد الفكر والفن!

إن قراءة ثلاثة كتب تلتقي مع بعضها، على أكثر من صعيد، تتناول علاقة المسيحية بالإسلام، من منظور سياسي وثقافي، تفيدنا في هذا المجال، ويمكننا الاعتماد عليها، في إثارة أفكار تهمنا...

1 ـ الكتاب الأول هو (أوروبا والإسلام)(1) لـ «هشام جعيط» الذي يتضمن معلومات خصبة ومثيرة، حول علاقة المسيحية بالإسلام، بتفعيلاتها الحديثة اليومية السياسية.

فعلى صعيد الوزن الثقافي والحضور الأدبي يرى أنه (من البديهي أن المسيحية في العصر الأموي، كانت تمتلك سواء في الشرق، أو في بيزنطية، ترسانة لاهوتية متفوقة على ترسانة الإسلام التي ما كانت موجودة تقريباً والتي لم تكن إلا للرد على هجمات المسيحية الشرقية، مستعيرة مفاهيمها ومناهجها ـ ص 17).

(1) جعيط، هشام: أوروبا والإسلام، ترجمة د. طلال عتريسي، دار الحقيقة، ط 1980.

ومن الضروري الذكر هنا، أن الإسلام لم يُعط له التفوق على المسيحية: ثقافة أو وجوداً مادياً ومعنوياً، إلا بفعل الطرق والأساليب التي اكتسبها، وأوجدها آنذاك، وخاصة في القرون الأولى منه، حيث أصبح الإسلام بمثابة (المملكة التي لا تغيب عنها الشمس)، وحيث انطوت شعوب وأمم، أو قوميات مختلفة تحت لوائه، واكتسب الإسلام حضوراً عالمياً متفوقاً! وعلى صعيد المواجهة، يقول «جعيط»: «إن الغرب المسيحي قد أصيب بجسده ونفسه خلال القرنين الثامن والعاشر بآخر امتدادات الفتح العربي ـ ص 18).

ولعل هذا التنامي الإسلامي، هو الذي دفع بالكنيسة بالدرجة الأولى، إلى (تحريك) أوروبا كلها، وبث مؤثراتها الكنسية في أذهان المؤمنين، خارج حدود أوروبا والذين يخضعون لسلطتها الروحية، وخلق ما يمكن تسميته بـ (المخيال الرمزي الكنسي) الذي يعزز سلطة الكنيسة، وإلى تهيئة النفوس والعقول التي تشكل جبهات متداخلة لحماية سلطانها المادي والمعنوي. وكان ما يسمى بـ (تجييش وعي جماهير المسيحيين) هو المبادرة الكبرى من قبلها في مواجهة الإسلام، ولذلك لا نستغرب كيف تنامى الصراع، وامتزجت الحرب الباردة بـ (الحرب الساخنة)، أو العنف النظري (الأدبي/ القيمي) بالعملي. والواقع كان يمهد لذلك؛ فقد كانت (هناك رؤية فكرية قد تهيأت في القرن الثاني عشر، توسعت وتدفقت في القرن الثالث عشر والرابع عشر لتمتد حتى القرن الثامن عشر، وحتى العصر الاستعماري. هذه الرؤية تنطلق من عداء واسع للنبي الذي بـ «نبوءته الكاذبة» قد أوقف تطور الانسانية باتجاه المسيحية ـ ص 20).

ومما يجدر ذكره هنا، هو أن من يجد نفسه في موقف دفاعي، ويشعر بخطورة الذوبان في الموقف الجديد، ويتشبث برأيه ومعتقده، ويسعى إلى بذل كل المحاولات التي من شأنها ما يشبه إفحام الخصم، أو إبقاء الذات في موقع الأقوى، وإثارة كل ما من شأنه توتير العلاقة بين مؤيديه، وأعدائه، أو خصومه أو تأليبهم عليهم، باستخدام المفردات والتصورات المعبرة عن ذلك، تلك التي تعتبر قاطعة وحاسمة. كما في كلمات (الكفر، الإلحاد، الكذب، التجديف، الخرافي، الشيطانية، السخف، الدجل، الحلولية،

الإباحية. . . إلخ) التي لا تزال مؤثرة في أذهان الكثيرين من المؤمنين، حتى يومنا هذا. ولم تبخل الكنيسة، وهي تشعر أنها مهدَّدة، من قبل دين فتي صاعد، متوثب هو الإسلام، لم تبخل بإيجاد الأرضية المساعدة لها في ذلك: (إن الإسلام في التقليد المسيحي يعتبر مخرباً وقادماً يدعو العاطفة تحديداً، لأنه يدعي الوقوف على نفس الأرضية مع المسيحية. إن نجاحاته مهما تكن كبيرة فهو ليس سوى قادم جديد، سيىء التسلح، بدائي، ودون إعداد عقائدي، ومع كل الحسابات، إنه تبسيطي. إن نجاحاته في العالم ليست دليلاً على صحته، لكنها تحدٍّ للحقيقة وفضيحة إلهية مستمرة، ذلك أن الله في حد ذاته وفي مشاريعه التي لا تخرق، يسلح، يربي وينجح السوء والكذب ـ ص 21).

ونتيجة ذلك، لا نستغرب عندما نجد كوكبة هائلة من المفكرين والمثقفين والساسة الذين نقرأ عنهم «ومن المؤسف أننا نقرأ لهم هنا وهناك، باعتبارهم متنورين، وتقدميين في رؤاهم الإنسانية، حتى في كتبنا المدرسية والجامعية، ويُكتب عن فذاذتهم، وجهودهم الفكرية الأثيرة، في دوريات مختلفة، دون وجود تخطيط لذلك، وهذا يحتاج إلى تربية الذاكرة الجماعية، وتنمية النقد العلمي الذي يشير إلى الغث والسمين معاً، في عملية حساسة من هذا النوع». . . لا نستغرب ـ كما قلنا ـ عندما نجد هؤلاء، يفكرون بعقلية كنسية دعاوية وظلامية كذلك، وهم يتناولون الشعوب الأخرى أنتروبولوجياً وتاريخياً، حيث تبدو الكنيسة في موقفها السلبي من هذه الشعوب اللامسيحية (والمسلمة خاصة) هي الحاضنة لتصوراتهم، والراعية لها.

وفرنسا التي يقال عنها بأنها مركز إشعاع ثقافي، ومسرح الأنوار إنسانياً، لم تبخل في استثمار كل الوسائل الممكنة لتشويه صورة الإسلام، وتحجيم فعله. فمعركة (بلاط الشهداء) حية في ذاكرتها، والإسلام الذي وصل إلى حدودها ولم يتجاوزها، حيث شعرت بالخطر يهددها، باسمه، أثارت به كل ما من شأنه مواجهة الإسلام، وردعه، بل ومحاصرته، وبعثرته. ولهذا، فـ (إن الحروب الصليبية كانت أساساً من صنع الفروسية الفرنسية والاستعمار الفرنسي، على عكس الاستعمار الإنكليزي، كان استعمار كبت، عنيف، وفظ

ـ ص 44).

ولهذا نجد (فولتير، وفولني، وباسكال، ورينان، وماسينيون... إلخ) غير بعيدين عن المناخ الكنسي.. والبسملة التي استهل بها (نابوليون) خطابه للمصريين، في عام (1798)، كانت ترتكز على خلفية ثقافية وخبرة مسبقة بالإسلام، أو اهتمام دقيق به، ليس حديث العهد...

كما أن عبارة (الجنرال غورو)، وهو يدخل دمشق غازياً، بعد معركة ميسلون عام (1920)، ويخاطب (صلاح الدين) في قبره، في جامع (أمية): ها قد عدنا يا صلاح الدين! وكأنه يرد عليه، عندما انتصر على الصليبيين في حطين، وطردهم من المنطقة، وقال في إثرهم: لقد خرجتم، ولن تعودوا أبداً.. ليست اعتباطية، بل تحمل الكثير من الدلالات في داخلها.

هكذا تحضر الإيديولوجيا الكنسية المتصلبة في الذاكرة الشعبية المسيحية، وتستثمرها في العمق...

2 ـ وفي كتابه (أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا) لـ «مونتغمري واط»[1]، يثير هذا، العديد من الأفكار التي تدور حول محوري المسيحية ـ الإسلام، وكيف أن المسيحية ارتبطت من ناحيةٍ بسلطة الكنيسة، وعبرت عن سياستها البابوية أو عن مركزيتها العالمية. ولكنه يوضح لنا كيف (أيد البابوات المحاولات العديدة للقتال ضد أعداء المسيحية عامة، لا ضد المسلمين فحسب. ففي عام 1066 حصل «وليم الفاتح» على مباركة البابا ورايته في حملته على أنكلترا. وقبل ذلك، في عام 1059، وقع البابا مع الفرسان النورمنديين في شمال إيطاليا اتفاقاً حول «النضال» المشترك ضد بيزنطة، أي ضد المسيحيين الأرثوذكس. كما استخدمت فكرة الحروب الصليبية للقتال ضد الهراطقة داخل البلدان المسيحية نفسها، كما حصل، مثلاً عام 1209 ضد

(1) واط، مونتغمري: أثر الحضارة الإسلامية على أوروبا، ترجمة: جابر أبي جابر، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1981.

الكاتار أو البيغوميليين في جنوب فرنسا ـ ص 110). نعم، كان تنامي القوة الإسلامية تهديداً للمسيحية المسيَّسة في الشرق، ومن خلال البيزنطيين، كان دخول العرب ـ المسلمين إلى أسبانيا (الخاصرة الأوروبية) تهديداً إسلامياً سياسياً لأوروبا قاطبة في العمق (أوروبا المسيحية تماماً) بعامة، وللكنيسة البابوية في روما بخاصة.

ولذلك كانت محاولات الكنيسة منذ مطلع القرن الثامن الميلادي، هي كيفية الحد من توغل المؤثرات الإسلامية داخل (امبراطوريتها الدينية)، فكل تقدم، كان يعني تقليصاً أكثر لهيبتها. . ومن السهل تصور ضخامة الإمكانات والإمكانيات التي وظفتها الكنيسة، ومعها (أوروبا) وخاصة الدول التي شهدت تهديدات مباشرة: إسلامية الطابع: أسبانيا ـ إيطاليا ـ فرنسا، والميزانية الضخمة، والكم الهائل من المحنكين والمفكرين والإعلاميين، لمواجهة الخطر المحدق بها.

ومن جهة ثابتة ـ وهذا ما يجب أن يُدرك بصورة جيدة ـ يجب ألا تُفهم العلاقة بين المسيحية والإسلام بوصفها علاقة بين متخاصمين، كما لمسنا في كلام (واط). فالكنيسة البابوية، كانت تحاول حماية المسيحية، ولكن المسيحية التي ترسم لها هي، وتعبر عن توجهاتها.

ولهذا فهي لم تأل جهداً في محاربة الخارجيين على إرادتها في (الشرق والغرب). وهي أكدت ولا تزال تؤكد على أكثر من صعيد: البعد الأيديولوجي لمسيحيتها تجاه خصومها، أو تجاه من تعتبرهم خصوماً في تمازج سياستها مع التوجهات السلطوية في أوروبا. والمؤلف نفسه عندما يقول (في عهد البابوات المصلحين، المعروفين بأفكارهم الداعية إلى تثبيت السلطة المركزية، أصبحت التطلعات السياسية للأوساط العليا في الفاتيكان تمتد لتشمل لا العالم الغربي فحسب، بل العلاقات مع جيرانهم المسيحيين في الشرق أيضاً. . . إلخ ـ ص 111)، ويذكرنا ذلك بأن الدين لم يكن في يوم مجرد نصوص، وإنما هو عبارة عن حقيقة حركية، وعلاقات اجتماعية، ومسرحاً حركياً، تتجلى عليه، ومن خلاله تصورات الناس اليومية، وأشكال صراعاتهم مع الواقع، ومع بعضهم بعضاً.

ولكن ما يجدر ذكره، هو أن (من الواضح تماماً أن الحملات الصليبية قد أثارت في أوساط العلماء الأوروبيين اندفاعاً نحو دراسة الإسلام كدين) ومما يذكر هنا هو أن هناك معلومات لفّقت عن الإسلام، ونبي الإسلام، من منظور كنسي، حيث تحولت إلى حقائق نفسية، يُعتدُّ بها، وهي كانت في جوهرها خاطئة، كما يذكر «واط»: (فقد كان يُنظر إلى المسلمين على أنهم قوم وثنيون، يعبدون محمداً. أما محمد نفسه فكان الأوروبيون يعتبرونه إما ساحراً، أو حتى شيطاناً؛ وهو ما تؤكد عليه الكلمة الإنكليزية mohound (بالأسكوتلاندية ـ «الشيطان»)، التي كانت تشويهاً لاسمه، وكانوا يظنون أن الدين الإسلامي يدعو إلى الإباحية الجنسية ـ ص 144).

ويذكر «واط» كيف أنه (لم يكتف بعض الباحثين المسيحيين بالتصريح بأن القرآن يحتوي على الكثير من الأكاذيب، بل مضوا في التأكيد على أن محمداً ليس نبياً. فقد تبنى «بطرس المحترم» قول بعض علماء اللاهوت البيزنطيين بأن الإسلام ليس إلا ضرباً من الهرطقة المسيحية ـ ص 151).

ولكن لماذا كان يتم ذلك؟ المؤلف نفسه يعطينا الجواب، بقوله (إن تشويه صورة الإسلام، كان أمراً ضرورياً للأوروبيين لكي يعوضوا عن هذا الشعور بالنقص. وقد ساهم «بطرس المحترم» بقسط أساسي في تكوين هذه الصورة الجديدة، حيث أوصى على «ديوان طليطلة» ووضع، في نفس الوقت، «مجموعة العقائد الإسلامية»، و«دحضاً» لهذه العقائد ـ ص 160). طبعاً لم يكن من الممكن استيعاب حركية المجتمع الإسلامي وقتذاك، لأن الذهنية التي تعاملت معه، كانت تحمل صورة مغايرة لمجتمعها، عن صورة المجتمع الإسلامي من جهة، وخاصة بالنسبة لمفهوم الجنس، ولأن ما كان يثار (وهذا هو الأهم) بخصوص علاقة الكنيسة البابوية في إطارها السياسي، تجاه (العالم الإسلامي)، كان يدخل في فضاء تشويه (الآخر)، بأي وسيلة، للنيل منه، وتجاوزه.

3 ـ والكتاب الثالث هو (الاستشراق)[1] لـ «أدوارد سعيد»، المثير في

(1) سعيد، ادوارد: الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 2، 1984.

متضمناته الفكرية: فهو لا يبتعد عن الكتابين السابقين، فيما يخص موضوعاته. إلا أنه يبقى أقرب إلى كتاب (أوروبا والإسلام)، من ناحية كثافة موضوعاته، وأسلوبه السجالي العميق، وذلك التمفصل الذي يجريه المؤلف هنا بين (الغرب والشرق)، معتبراً هذين المفهومين كيانين قائمين ومستقلين عن بعضهما بعضاً، كما في حال أوروبا والإسلام، ومنطلقاً من وعي مأساوي بعنف التصادم بين هذين العالمين، معمّماً مقولاته، حيث الظاهري يبدو حقيقة عامة تشمل الباطني. أي يبدو الغرب معادياً كله دون تحديد لهوية المصطلح السياسية، كما في حال مفهومي (أوروبا والإسلام).

إضافة إلى أن الكاتب في شرقيته، يظل (مسيحياً)، وهنا المفارقة (أي اختلافه عن (جعيط) المسلم، أي أن الانتماء المكاني يغلب الانتماء المذهبي، وهذا يعني أن هناك تداخلاً في المفاهيم، وأن من الوهم تماماً اللجوء إلى التعميم، وخاصة عندما نطلق أحكاماً معينة، على أرضية مذهبية، كأن الإسلام في مواجهة المسيحية، أو بالعكس، أو نضع الشرق في مواجهة الغرب، أو بالعكس، حيث الصفة الغالبة لا تقابل الكل (أوروبا الرأسمالية لا تعني أن أوروبا كلها رأسمالية، مثلما أن الإسلام الذي يُحكى عن أصوليته هنا وهناك لا يعني أن الإسلام كله أصولي، كصفة سلبية له).. يقول «سعيد» عن الإسلام، وكيف كان ينظر إليه أوروبياً (لم يصبح الإسلام رمزاً للرعب، والدمار، والشيطاني، وأفواج من البرابرة الممقوتين، بصورة اعتباطية، فبالنسبة لأوروبا، كان الإسلام وجه مأساوية دائمة، وحتى نهاية القرن السابع عشر كان «الخطر العثماني» متربصاً بأوروبا ممثّلاً بالنسبة للحضارة المسيحية كلها تهديداً دائماً - ص 89).

طبعاً ليس من الممكن استيعاب قول كهذا، إلا في إطاره السياسي. فأوروبا لا تعتبر نفسها مسيحية، إلا لتؤكد تمايزها، ولكن دون أن تنسى موقعها الجيواستراتيجي والسياسي.

ولكي تعمق الصراع لصالح ما هو سائد، وتمنع لقاء أو تلاقياً بينها وبين الشرق، أو الإسلام. وإن كان هناك ثمة حضور للمصطلح المذهبي، يتداخل مع

المصطلح السياسي (أوروبا أو الغرب)، أو الإسلام، أو (الشرق)، فيجب ألاّ يعمينا هذا الحضور السياسي عن رؤية المختلف فيه.. وعن رؤية ما هو مشترك بين المسيحية والإسلام، بين الغرب المسيحي والشرق المسلم هنا!

إن ما يقوله (سعيد) عن حساسية الأوروبي تجاه الإسلام، حين كان هذا مالىء الدنيا وشاغل الناس، يفسّر لنا الطبيعة النفسية للأوروبي (الأوروبي الذي يشعر بالدونية، بخيبة الأمل تجاه من يحكمه، ومن يعده بالخير الوفير، دون أن يتحقق شيء من ذلك، فيكون ضحية السياسي، والأوروبي الذي يشعر وهو في إيمانه المسيحي، أو يكون مسيحياً، وقد كانت المسيحية في يوم ما، تشكل الهوية الملازمة للأوروبي، وعلامة فارقة له) الذي يشعر بعجزه عن مواجهة الإسلام: إسلام القوة والنفوذ والانتشار والثقافة المرافقة، وهو لا يستطيع الارتقاء مثله، وهو متنفذ في مجتمعه.. وفق هذا المنظور، يجب أن يستوعب قوله، وهو (ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أي أوروبي، ماضياً أو حاضراً، كون الإسلام قد فاق روما إشعاعاً وسما عليها ـ ص 101).

ولعل ما يقوله (إدوارد سعيد) في مكان آخر، يوضح لنا ذلك (فلنقل إذن إن الإنشاء حول الإسلام، إن لم يكن فاسداً باطلاً برمته، فهو بالتأكيد، مشوب بألوان الوضع السياسي والاقتصادي والفكري الذي ينشأ فيه: وينطبق قولنا هذا على الشرق انطباقه على الغرب. ولأسباب بينة كثيرة، ليس من قبيل المغالاة والإفراط في المبالغة أن نقول: إن كل إنشاء حول الإسلام له مصلحة ما في قوة أو سلطة ما)[1].

فكأنه بمثل هذا القول يرد على نفسه بخصوص تقييم الإسلام، أو الغرب ولكن دون أن ننسى، أن كل ما يُكتب عن الإسلام، لا يمكن إدراجه في خانة واحدة، ويجري تقييمه بنفس الدرجة...

ولو كان الوضع كذلك، فبوسعنا الجمع بين موقف تعصبي عنصري أيديولوجي صارخ، يتجسد في شخص (كيبلنج) الإنكليزي، صاحب الشرق

(1) سعيد، ادوارد: تغطية الإسلام، ترجمة سميرة خوري، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط 1983، ص 17.

شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا)، وموقف (رينان) الذي قابل الشرق بالإبداع، أو السلبية في الفكر، والموقف من العالم، وجعل أوروبا موئل الفكرة الفلسفة، دون أن تخلو دراساته من لمعات فكرية. وموقف (جاك بيرك) الأكثر توازناً وإنسانية، مثلما يحاول أحدنا الجمع بين موقف (الشعراوي) المتصلب من الغرب المسيحي، وموقف (حسن حنفي) المعتدل، وموقف (أركون) المنفتح على الغرب، الغرب كما يوصف بـ (المسيحي). . .

إن عودتي إلى أمثلة حية راهنة لا تزال تشهد على عنفوانية البعد الأخلاقي فيها، هذا البعد الذي يبدو لي أنه من نتاج مشترك، قطباه المتداخلان: المسيحية ـ الإسلام، إن عودتي هذه، تبدو ضرورية في هذا المجال، لتوضح ما قيل، وللتأكيد على أن ما يجري هنا وهناك يستحيل تفسيره كثنائيات متضادة. . في مقاله (الإسلام وغناه الأخلاقي) يحاول (المسيحي الغربي) «كريستيان جامبي» اختراق هذه الثنائيات، عندما يدعو إلى النظر إلى الإسلام، باعتباره حضارة وثقافة، لا ينبغي تجاهلهما، بل لا يمكن ذلك (فإن مجرد رفضنا معرفة الروافد الداخلية للإسلام يصب في مجرى العنصرية المتفشية)(1).

هذه الدعوة تكتسب مشروعيتها، وتؤكد عقلانيتها، بل وديموقراطيها الفعلية، باعتبارها تنطلق من معاناة روحية (إن جاز التعبير)، في واقع يشهد تصدعاً، حين يقام على أرضية الثنائيات المتضادة. . فالعالم الذي نعيشه أو نسكن فيه، تتقارب أجزاؤه، وتشكل دائرة واحدة، كل ما يُرسم فيه يؤثر في الأجزاء الأخرى، وهذا يعيدنا إلى التشبيه القديم له، والمأثور. وهو أنه جسد واحد، كل عضو فيه، ينشط، أو يقوم بفعل معين، يؤثر مباشرة في الأعضاء الأخرى. والتسارع الرهيب في الصراعات التي يشهدها عالمنا كما أن المتغيرات الكبرى التي يعيشها، علامات تبعث على الأسى الكوني. وكأن ما قاله (جامبي) كان يُستلهم من (جعيط) «هذا المسلم الشرقي»، عندما كتب في مقدمة كتابه المذكور سابقاً (إننا نتوجه اليوم نحو مواجهة بين الحضارات لم يسبق لها

(1) جامبي، كريستيان: الإسلام وغناه الأخلاقي، في مجلة (مواقف)، العدد 63، ص 10.

مثيل في التاريخ. إن قوى الجذب والمصالح التي تجمع حول محورها الخاص التجمعات البشرية الكبرى سوف تلجأ إلى المذهبيات الحديثة وإلى التبلورات القديمة. وكلما توحد العالم أكثر، كلما تعرض للتمييز، للبيننة، وللتمفصل حول أقطاب مسيطرة ـ ص 10).

ولعل «سامي نائير» هو الأكثر إثارة في هذا المجال، عندما يقول (إن الإسلام مكوّن من افتراضات النظرية الغربية للعالم، أي أنه متخيَّل، بجزء كبير منه)[1].

لكن الذي يستدركه لاحقاً بخصوص علاقة الإسلام بالآخرين، أو بالعكس، هو أن هناك (ثمة خطأين يجب تفاديهما: خطأ بعض المسلمين الموجودين في حالة دفاعية دائماً، والذين لا يريدون الحكم على الإسلام إلا بمقياس عظمته في الماضي متبجحين بالعصور الذهبية الغابرة، وخطأ أعداء المسلمين، (وهو الخطأ الموازي للخطأ الأول) الذين ينطلقون من فرضية ثابتة تقول بأن الإسلام لا يمكنه أن يندمج في نظام العالم الحالي)[2].

وفي الوقت الذي ينتقد فيه أولئك المتطرفين من أبناء (جنسه) من الفرنسيين، الذين رفضوا مساواة الفرنسيين بالجزائريين، ينتقد المتطرفين المسلمين، الذين يؤكدون في أنفسهم أصالة دينية غير واقعية.. فبالنسبة للاتجاه الأول، يبرز اسم المفكر المعروف «ريمون آرون»، الذي كتب عشية الثورة الجزائرية (هل تريدون أن يصبح الجزائريون فرنسيين كلياً؟ وهل تنتظرون أن يتحول المسلمون في السنوات القادمة إلى أغلبية في فرنسا بفضل نموهم الديموغرافي؟!).

وبالنسبة للاتجاه الثاني يبرز هنا اسم الأصولية الإسلامية المتشددة في الجزائر، حيث (تقدم الأصولية، العاملة على تأصيل الإسلام العفوي للمؤمن اليائس، وعلى طريقتها الدوغمائية والاستبدادية)، تماسكاً ومعنى لتمردها، الافتراضي أو الواقعي. وتصير هذه الأصولية هي المجتمع المضاد، الهوية

(1) نائير، سامي: الإسلام في زمن الشدة، في مجلة (مواقف)، العدد 63، ص 35.
(2) المصدر نفسه، ص 36.

الملجأ، الوجه الآخر الكامل لعالم ناقص...)[1].

ولعل الإحساس بتمازج الثقافات واختلاط الشعوب، وطغيان السياسي، هو الذي دفع بكاتب فرنسي يدعى (برنار سيشير)، مسكون بالسخط والقهر والأسى، حين يجد في مجتمعه (أمواجاً بشرية عديدة) في البحر الفرنسي، حيث لا يمكن تجاهل حركة هذه الأمواج، وخاصة وجود المسلمين في فرنسا. وسواء كان هدفه هو: ضرورة الاعتراف بهم إنسانياً، أو الانتباه إليهم بوصفهم قوة لا يمكن تجاهلها، ففي الحالتين، هناك حقيقة ينبغي التركيز عليها، وهي أن المجتمعات البشرية، ومنها المجتمع الفرنسي، بشكل خاص، لم تعد أحادية الجنس والهوية، وهذا من شأنه إثارة تساؤلات، وخلق متاعب جمة، وتنامي مشاكل لا يمكن التنبؤ بنتائجها، تحتاج إلى أرضية جديدة للدراسة بالنسبة للعلوم الإنسانية، وخاصة فيما يتعلق بسوسيولوجيا الثقافات البشرية، والأنتروبولوجيا الاجتماعية.. فالإسلام حي في ذاكرته، كيف لا، وهو يذكر بدايةً أنه مسيحي وكاثوليكي وخاصة عندما يكتب: يبدو لي أن أعراض «بواتييه» المرضيّة إنما تشهد على جهلنا العميق بحقائق الإسلام، كما تشهد، في الوقت نفسه، على عودة غريبة للمكبوت تجعل العربي (المسلم بالأخص) يحل وقتياً محل اليهودي في الاستيهام العنصري والمتوتِّر لغيرية (Altérité) قوية تنذر وتهدد)[2].

وهو في الوقت الذي يحمّل فيه الكنيسة المسيحية مسؤولية الأعراض المذكورة، وعودة المكبوت، الذي يخص الإسلام (الإرهابي تماماً)، ويشير إلى تلك المواقف السلبية لمفكرين متميزين تجاه الإسلام، (الإسلام العملي تماماً)، كما في حال (فوكو)، يدعو إلى دراسة الإسلام، خارج نطاق المسيَّس، (وخارج نطاق الإسلام الإرهابي). لأن السياسة (السائدة خاصة) هي التي تُروّج لذلك، لخدمة مصالحها. وخاصة عندما يقول متسائلاً (وإذا علمنا

---

(1) المصدر نفسه، ص 40.

(2) سيشير، برنار: الحجاب، العرب ونحن، في مجلة (مواقف)، العدد 63، ص 49.

أننا نسلّح في العالم بعض الذين تستنكر حكوماتنا أفعالهم، فباسم أية أخلاق يمكننا أن نتكلم؟)[1]. ويدعو إلى ضرورة الانطلاق من أرضية جديدة: سلوكاً ونظرية، تجاه ما يجري. لماذا؟ لـ (أنه الاحتمال الأخير، وخارج هذا الاحتمال، أخشى أن نكون قد تهنا من أجل تاريخ سيُصْنَعُ، على أية حال، ولكن من دون مشاركتنا)[2].

وإذا كان «سيشير» يشعر بمأساوية ما يجري، فإن مواطنه الآخر «دانيال هرفيو ـ ليجيه» يتضخم شعوره المأساوي بما يجري. إنه بشكلٍ ما، يؤكد إيمانه المسيحي. وهو لا يفعل ذلك، إلا لأنه يرى في ذلك حالة قوية من حالات توكيد الذات، فالمسيحية التي شكلت الهوية المتميزة للأوروبي سابقاً، بوسعها أن تحافظ على تمايزه راهناً كذلك. ولعل مثل هذا التركيز، ينطلق من انزلاقات الموقع، وخطورة الحالة التي يعيشها (اليجيه)، خاصة أن مجتمعه (الفرنسي) المُعَلْمن، قد ارتفعت نسبة المهاجرين المسلمين فيه، وهي تهدد هذه الهوية في العمق. ولهذا يكتب بأسى عن حقيقة الدين، ويدعو إلى دراسته، انطلاقاً من الموقع المذكور. في بحثه (دين، حداثة، ودنيوه)[3].

وبالمقابل، يمكن ملامسة الوعي الكارثي، في الطرف الآخر، الذي يجسده الإسلام (الإسلام العملي) فما يُكتب عن أوروبا، وعن عنجهيتها، وعن مسيحيتها المسيسة، يجب ألا يُهمل (بالمقابل) ما يجري في (الشرق)، في (الشرق المسلم)، وكيف يتداول فيه الإسلام البراغماتيكي على أكثر من صعيد ولعل كلاماً كهذا، يتوضح من خلال (محمد اركون)، وهو مفكر لا يخفي إسلاميته، بل يتعمق فيها، على الصعد كافة. فهو عندما يكتب (إن الإسلام كان دائماً يستبعد من ساحة النقاش في الغرب الأوروبي والأميركي، لأن هذه الساحة تبقى حكراً على تراثي اليهودية والمسيحية. وأعتقد أن هذا الاستبعاد التاريخي الذي طال لم يعد له من مسوّغ)[4]. لا ينسى أن يشير إلى ذلك الجهل العملي والنظري

---

(1) المصدر نفسه، ص 53.

(2) المصدر نفسه، ص 56.

(3) أنظر «دانيال هرفيو ـ ليجيه»: دين، حداثة ودنيوة، في المصدر نفسه، ص 57 ـ 89.

(4) أركون، محمد: الفكر الإسلامي، المصدر المذكور، ص 314.

الذي يعيشه المسلمون والعرب تجاه أوروبا إن المسلمين عموماً والعرب خصوصاً لا يجهلون فقط عملية التطور التاريخي للمجتمعات الأوروبية المواجهة لهم، وإنما يجهلون أنفسهم وتراثهم الإبداعي المنتج)[1]. ولا ينسى أن يضيف أن ممارسة السلوك العصبوي المتطرف تجاه أوروبا، والانغلاق على الذات، مصيرهما الموت التدريجي، أو زيادة المشاكل والمنغّصات، وبقاء التخلف متنامياً (إنها مشاكل ضخمة وأكاد أقول مرعبة. وما دام الفكر الإسلامي المعاصر أو الفكر العربي المعاصر عاجزاً عن تحمّل مسؤوليته والقيام بهذه المهمة على وجهها السليم فلا أرى حلاً يلوح في الأفق)[2].

4 ـ المسيحية ـ الإسلام: التصورات المتخيّلة، والرهانات السياسية:

لعل هذا العنوان يشكل أهم العناوين الفرعية في بحثنا، إنه من جهة يكمل العناوين السابقة، في متضمناتها الفكرية والثقافية، وهو من جهة ثانية، يقارب من خلالها وعبرها الواقع المعاش... فإذا كنا نعرف أن ما هو إلهي يُفسَّر ويؤوَّل ويستوعب بشرياً، يصبح من الضروري أن نعرف بالتالي أن ما هو بشري ليس أحادي المفهوم، ليس ذا وجهٍ، إنه تنوع رؤى وتصوراتٍ... وهذا يعني أن المسيحية ـ الإسلام، لا يمكننا فهمهما في متغيراتهما العملية دون ملامسة ومعايشة الأرضية التاريخية لهما، واستقراء ما هو كامن، بل ومؤدلج فيهما. ولعل تناولاً بهذه الطريقة يتيح لنا مقاربة الديانتين، ويسمح لنا بالتالي، بتقريبهما من بعضهما بعضاً!

والعنصر المحرك لموضوعنا هنا، هو أن المسيحية ـ الإسلام، انْبَنَيا عبر، ومن خلال الكثير من التصورات المتخيّلة، والرهانات السياسية، والتاريخ (تاريخهما) هو الذي يثبت لنا ذلك! ويسمح لنا بمواجهة تلك الآراء التي تغلّب ديناً على آخر، من موقع أهميته، أو فذاذته التاريخية، باعتبارها تثبت ما تنفيه أيديولوجياً، وتظهر ما هي ضنينة به، بشكل مخاتلٍ ومراوغ. والأفكار

(1) المصدر نفسه، ص 321.

(2) المصدر نفسه، ص 325.

التي سنثيرها هنا، وهي قد تبدو اجتهادية في مضمونها، نسعى من ورائها، إلى رأب الصدع، في أكثر من موقف متوتر، يُتقابل عليه (أبناء) الديانتين، أو أبناء الدين الواحد.

ما هي العناصر المشتركة التي تجمع بين الديانتين؟

1 ـ **العنصر الأول** ـ والذي ذكرناه سابقاً ـ يؤكد سماويتهما، أو منبعهما الألوهي. ولعل التمعين في حقيقة هذا العنصر، وبعيداً عن التشنجات العصبوية، والمخاتلات المنطقية، يقرب بينهما أكثر.

2 ـ **العنصر الثاني**، هو أن أبناء الدينين، هم من أهل الكتاب أو أنهم سواسية. وليس هناك من يستطيع إثبات أفضليته على آخر، بزعم عنصري (تفوّق عنصري معين)، ولعل التمعين في حقيقة هذا العنصر بدقة، يزيل الكثير من الأوهام التي من خلالها، يمارَس هذا الدين أو ذاك في سلوك عنصري، على أكثر من صعيد، ويُعاش ذهنياً ونفسياً، بأكثر من طريقة فئوية أو مذهبية ضيقة.

3 ـ **العنصر الثالث**: وهذا هام من وجهة نظرنا ـ هو أن الديانتين شرقيتا الهوية، شرقيتا الاغتراب الإنساني راهناً، شرقيتا التراجيديا الإنسانية على صعيد الواقع. وتوضيح ذلك، هو أن المسيحية ذات نسب شرقي. فقد خرجت من المنطقة كمعتقد، وبقي مجسدها: (المسيح) ونمت وتجذرت في أوروبا، ثم نمت، واكتسبت أبعاداً أيديولوجية. وليست الحروب الصليبية، سوى التعبير الأوضح والأصح، عن رغبات الأوروبيين، للانتقام من ورثة المسيحية، الذين ـ يبدو أنهم ـ لم يعطوا لأوروبا المسيحية شيئاً، ولم يهتموا بالمسيح الاهتمام اللائق. وها هم الأوروبيون يسعون إلى رد الاعتبار للمسيح وذلك بمنحه هوية أوروبية، إنه وفق هذا المنظور (لاجىء سياسي، وملاحَق) وأوروبا تتبنّى قضيته، والدفاع عن اسمه، وباسمه تواجه من اعتبرتهم خصوماً لها: مسيحيون كانوا، حيث أهملوا (سيدهم) أَمْ مسلمين، حيث يعتبرون خصوماً للسيد المسيح، و(سارقي) رسالته، ومزوري هويته.

وكذلك فإن الإسلام هو شرقي، فهو يعود نسباً إلى (مكة) لكنه الآن يعيش

ضعفاً لا مثيل له. والصراعات التي يعيشها في عالمه، تظهر وكأنه يعيش خارج حدوده. وتبدو إيران التي ترفع راية الإسلام، وكأنها تحاول تأسيس الإسلام (الأصل)، في نسخة شيعية ذات مواصفات إيرانية، لا تخفي علامتها الفارقة (القومية الفارسية، وادعاء أن الإسلام هو في الأصل شيعي قوي الحضور هنا، أما تركيا، فهي بدورها، تشكل قوة أخرى، تسعى إلى استعادة مجدها الامبراطوري (العثماني)، وتحاول تأسيس سلام يجمع بين الحداثة المهيلة، والإسلام المُشترك (من التتريك)، وفرض هيمنتها على المنطقة. هكذا يظهر الإسلام غريباً عن أصوله، وعن دياره وكذلك.

4 ـ **والعنصر الرابع** هو أنه إذا كانت أعراض (بواتييه) كما سماها «برنار سيشير» تعيش في نفوس الأوروبيين، بوصفهم مسيحيين، ولأنها تذكّر بالمحاولة الإسلامية منذ أكثر من ألف ومئتي عام، وعبر فرنسا (أَسْلمة أوروبا)، وهذا يسمح باستمرار بتجديد هذه الأعراض، وخاصة في المواقف، أو الحالات التي تستدعي ذلك للفصل بين عالمين. فبالوسع ذكر أن هناك ما يشبه أعراض «بواتييه» في (العالم الإسلامي)، وهي التي بوسعنا تسميتها بـ (أعراض الحروب الصليبية) التي لا تزال حية في نفوس أغلبية المسلمين. فالصليبيون حاولوا منذ ما يقارب الألف عام، التحضير لأكبر مشروع أوروبي مسيحي، مستلهمين أعراض «بواتييه»، ولتعميم نصرها الساحق على المنطقة، ومحاولة أَوْرَبة وَمَسْحنة (العالم الإسلامي). ولعل تكرار هذا المفهوم في الخطابات الإسلامية (السياسية منها خاصة) حتى الآن، يؤكد مثل هذه الحقيقة!

5 ـ وإذا كان هناك من يربط بين المسيحية والتقدم، والإسلام والتخلف، وأن التقدم علامة المسيحية الفارقة، والتخلف سمة الإسلام الرئيسية. فمن الجدير بالذكر القول: إن الديانتين في الأصل شرقيتان، وأن تصنيفهما هكذا غير تاريخي، فالانتشار الثقافي، أو الحضاري، الذي شهده الإسلام في فترة زمنية طويلة، حيث كانت المسيحية تشهد ظلمات القرون الوسطى الأوروبية، يؤكد مثل هذا التصور: أي عدم ربط التخلف بالإسلام، والتقدم بالمسيحية. إن قراءة الوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي، لكل من العالَمَيْن، هي التي

تسمح لنا بمعرفة لماذا يوجد التقدم، أو التخلف، أو يظهرها، ويختفي هناك. وبعيداً عن السيطرات الفلسفية والاقتصادية يمكن القول: إن اعتماد العرب ـ المسلمين على الفائض التجاري، وعلى نظام الضريبة الخراجية، دون تطوير القاعدة الانتاجية، ومَرْكزة القوة السياسية بالنسبة للسلطة، وشرْعنة هذا الإجراء، من الأسباب الداعمة، لانحطاط العالم الإسلامي. ولعل إعادة إنتاج هذه المَرْكزة، وتهميش القاعدة الشعبية، الآن عنصر رئيسي لتنمية التخلف في العالم الذي يسمى بـ (العالم الإسلامي).

6 ـ **والعنصر السادس** الذي يقرّب بين الديانتين، هو أن القائلين بأن وجود حركات إصلاحية في المسيحية (البروتستانتية، فالكاثوليكية)، يؤكد تمايز المسيحية عن الإسلام، ويثبت أهليتها للتقدم. يصادرون على المطلوب. ترى ماذا كان يقال عن الديانتين، عندما كان (العالم الإسلامي) مركز إشعاع حضاري، و(العالم المسيحي) غارقاً في الظلمات؟ لا بد أنه كان هناك من يحاول اثبات العكس. إن التمعين في التيارات الفكرية والفرَق الإسلامية التي سمت نفسها إسلامية، ولم ترفض الإسلام، وخاصة في العصر العباسي (المعتزلة مثلاً)، يوضح لنا أن عدم وجود حركات إصلاحية في الإسلام، كتلك التي شهدتها المسيحية، لا يعني أن هناك جموداً في الإسلام ومرونة في المسيحية، المقارنة هنا غير عقلانية، لأنها تنطلق من حالة راهنة، ولا تتجاوزها. ولعل تأليه العنصر الخامس هو الذي يوضح هذه الإشكالية لنا ـ من جهة، إضافة إلى أن الإسلام الذي شهد فرقاً وتيارات إسلامية مختلفة في توجهاتها، وظهور أعلام لم يخفوا إسلامهم، مختلفين في توجهاتهم الفارقة، من أمثال (الشافعي ـ الجاحظ ـ النظّام ـ الطبري ـ ابن سينا ـ الرازي ـ ابن رشد ـ ابن خلدون. . . إلخ) يوضح لنا كذلك خطل هذه المقارنة من خلال ما هو معاش، من جهة ثانية!

ووفقاً لما تقدم، فإن القائلين بخصوصية إسلامية، والإيحاء إلى المسلمين بضرورة حماية هذه الخصوصية، في مواجهة الخصوصية الغربية (دون تمييز بين غرب وغرب سياسياً) دون أن يُفصحَ عن مسيحيتها، وخاصة في الآن الراهن في محاولة للإغلاق على المجتمعات التي يسودها الإسلام، وإبقائها متخلفة،

وبأساليب مختلفة لا تخلو من مكر. كما في حال (شتراوس)[1] ومعه (بيار كلاستر)[2]. . الخ. إنما يسعون إلى حماية (غربهم) بحيث يبقى حكراً عليهم، وفي موقع السيطرة التاريخية، وإلى الأبد. لقد وجد الدين، وكان هناك منذ البداية، من يحاول دنيوته (اكسابه طابعاً دنيوياً). فلغته في جوهرها بشرية والقوة وجدت في الغالب الأعم، متمركزة الاثبات تفوق فئوي أو عنصري، أو قبلي، بالاعتماد على الدين. وإن لم يكن الوضع كذلك، فكيف تفسّر حدة العنف التي شهدتها الديانتان، وخاصة محاكم التفتيش البابوية، والتصفيات التي تمت لفرق وجماعات وأفراد، تحت ذريعة العصيان، والمروق عن الدين في الإسلام؟ وكيف يمكن تفسير الأصولية الفاتيكانية، إضافة إلى الأصوليات الإسلامية، وخاصة في الآن الراهن[3]؟ إن المسيحية التي لم تعد، في الظاهر مشاركة للنظام السياسي في هذه الدولة أو تلك، في أوروبا وغيرها، إلا أنها غير غائبة عن الساحة السياسية، فكم من ممارسة سلطوية، وأعمال قمع وعنف مورست ضد شعوب وجماعات، بدعوى لا مسيحيتها، أو وثنيتها، أو حتى شرقيتها، وخاصة منذ الحروب الصليبية، كما في حال الأوروبيين في العالم الجديد، وغزوهم للمنطقة، واستغلالهم للمسيحيين فيها، بأساليب رخيصة[4]؟ وكذلك، فإن الإسلام الذي يبدو كلي الحضور في السلطة، لا يمكن قبول ما يُسند إليه من عنف هنا وهناك. وإذا

---

(1) أنظر حول ذلك كتابه (الأنتروبولوجيا البنيوية)، الجزء الثاني، ترجمة د. مصطفى صالح، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1983، الفصل الثامن عشر.

(2) أنظر حول ذلك كتابه (مجتمعات اللادولة)، تعريب وتقديم د. محمد حسين دكروب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1982، الفصل الحادي عشر خاصة، ص 187 وما بعد.

(3) أنظر حول ذلك، «غارودي»: الأصوليات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها، تعريب د. خليل أحمد خليل، دار عام ألفين، باريس، ط 1، 1992، الباب الثاني والباب الثالث خاصة.

(4) ربما كانت قراءة كتاب د. «يوسف الحسن»: البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي ـ الصهيوني، «دراسة في الحركة المسيحية الأصولية الأمريكية»، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 1990، مثمرة في هذا المجال.

كان الوضع كذلك، فكيف يمكن تقبله، حيث يقال إنه دين المساواة والمحبة، وأن (أكرم الناس عند الله أتقاهم)؟ كيف يمكن تبرير هذا القمع الشمولي في شتى جنبات هذا العالم المسمى بـ (العالم الإسلامي)؟ إننا نستطيع مقاربة الديانتين، على أساس ما هما عليه من وضع اجتماعي وسياسي وثقافي، والانطلاق من التصورات المتخيَّلة، وحدة الرهانات السياسية لكل منهما، يوضح ما ذهبنا إليه!

ولعل الرجوع إلى بداية الغزو الأوروبي للمنطقة، واهتمام الأوروبيين بالمنطقة هذه، هما اللذان يبرزان مدى تفعيل الدين السياسي، وإلى أي مدى تم التخطيط لأهداف استراتيجية بعيدة المدى، في أرجاء الدولة العثمانية، تلك التي كانت تسيطر على شعوب وأمم مختلفة في أجناسها وقومياتها وحتى أديانها، وبلغ من انقسام الدين (الدين الإسلامي أو الدين المسيحي) على نفسه، هذا، مدىً لم يبلغه من قبل، وظّف إلى أبعد الحدود، في خدمة أهداف وتطلعات الدول الكبرى، والعثمانيون أنفسهم، بذلوا كل ما في وسعهم، لجعل الإسلام «عثماني» الطابع - فمن جهة (أقامت الدول الكبرى في أنحاء الامبراطورية «العثمانية» التي يقطنها سكان غير مسلمين، وبفضل حمية المرسلين، شبكةً من المدارس المسيحية/المسيحية «أصبحت بؤرة للنزاعات الطائفية» والثقافة في هذه المدارس لأبناء الأقليات، كانت ترمي إلى كسبهم للمعسكر الغربي، وبطريقة غير مباشرة إلى تغريبهم عن القيم التقليدية للحاضرة الإسلامية، إن لم نقل، إلى تأليبهم عليها)[1].

وهذا يعني أن علينا عدم تفسير الأمور، وما كان يجري، وما يجري الآن هنا وهناك دينياً، فالدين يشغل هذا الحدث أو ذاك، والدين كامن في عامل ما، له دوره في توتير موقف معين، أو توجيهه وجهة معينة، أو تعديل، أو تحوير مشكلة معينة، لكنه لا يمكنه أن يكون السبب الموجّه لكل متغير على أرض الواقع. وما قيل على لسان أحد أولئك الأحبار، من الذين عايشوا أحداث تغلغل الأوروبيين في المنطقة، مؤكداً ربط الدين بالمصلحة الذاتية، يؤكد ذلك (الدين والمصالح القومية قرينان

---

(1) قرم، د. جورج: تعدد الأديان، ص 270.

لا يفترقان في نظر الفرنسيين والإنكليز. فقد كان الممثلون المدنيون والدينيون لهاتين الأمتين يبذلون قصارى جهدهم لكسب زبائن يكون لهم نفعهم من منظور التجارة أو المطامح السياسية، ويجري تجنيدهم إيثاراً من بين النصارى. وكانت المدارس والكتب والأموال تدعم جهودهم وتغذيها)[1].

ولتأكيد ما ذهبنا إليه، يمكن التمعين في خريطة التغلغل الأوروبي السياسية في المنطقة وقتذاك، (والواقع أن الدول الأوروبية نسجت في شبه جزيرة البلقان، كما في الأقاليم العثمانية العربية أو في المناطق الأرمنية والكردية من فارس، وآسيا الصغرى، شبكة كثيفة من الزبائن)[2]. وهذا يعني أنه إما كان المرسلون مجرد رجال دين ودعوة روحية، بل كانوا متحدرين أيضاً من البنى الثقافية والذهنية للثقافة الأوروبية... الخ)[3].

ولكن هل كان العثمانيون بعيدين عن ممارسة سياسية مصالحية، كالتي مارستها أوروبا الاستعمارية؟ لقد بذلوا ـ بدورهم كل ما في وسعهم، لتوطيد سلطتهم، بالاعتماد على (طأفنة: من الطائفية) المجتمع، وخلق التوترات بين أبناء القوميات المختلفة، مستغلين الدين، وساعين إلى تجييش الوعي المجتمعي والمذهبي لدى هؤلاء (لقد توطد النظام الطائفي على نحو لم يسبق له مثيل في ظل العثمانيين)[4]. ولم يُعمَد إلى ذلك، إلا استجابة للمتغيرات الدولية والمحلية، ولأن مصلحتها اقتضت ذلك، وإن كانت حساباتها غير دقيقة، باعتبارها كانت تلجأ إلى المزيد من التنازلات، أمام الصفوة الأوروبية، بممارسة المزيد من الضغوط على أبناء الشعوب التي استعمرتها، حيث كانت تأخذ مقابل كل تنازل أموالاً، لتمويل عملياتها العسكرية، ولأن مظاهر البذخ والترف كلفتها كثيراً، لهذا (توسع نظام الاستقلال الذاتي الطائفي إلى أقصى

(1) المصدر نفسه، ص 292.

(2) قرم، د. جورج: أوروبا والمشرق العربي «من البلقنة إلى اللبننة: تاريخ حداثة غير منجزة»، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1990، ص 62.

(3) المصدر نفسه، ص 64.

(4) قرم، جورج: تعدد الأديان، ص 270.

مداه فصارت الهيئات الروحية للطوائف غير المسلمة تشكل دولاً ضمن الدولة بملء معنى الكلمة)[1].

ولكن كيف كانت النتيجة على المدى الطويل؟ لقد زاد وجود الحكام المحليين، أو ولاة الأقاليم، وحتى نفوذ البطاركة شهد تنامياً واسعاً. وفي القاعدة، كانت العامة بمختلف أجناسها ومذاهبها تعيش معاناة متعددة المصادر: سياسية واجتماعية واقتصادية.

وهذا يعني (أن خط الفصل الأساسي كان يمتد لا بين المسلمين والنصارى، والأتراك وغير الأتراك، وإنما بين الحكام والمحكومين، المضطهَدين، فكان من هم في القمة: الموظفون العثمانيون، أو الضباط، الصيارفة اليونان أو الأرمن، التجار أو كبار رجال الدين، يزدرون الجمهور. وكان الأعيان يتألفون من المسلمين والنصارى. وكان الفلاحون يرزحون تحت نير اضطهادهم)[2] ـ كما يذكر «ر، هـ. ديفيسون».

وبقدر ما يمكننا تصور طبيعة الصراعات والنزاعات التي كانت تدور بين الدول الاستعمارية في المنطقة، لا بد أن نتصور بالمقابل كيف يتم تجيير الدين على الصعد كافة، خاصةً أن المشاعر التي كانت تحرك السكان المحليين، هي من طبيعة دينية، أو تتغذى من جذور دينية. والأكثر وعياً بالموضوع، كان الأكثر تحريكاً للدين في الاتجاه الذي يرغب فيه. ولهذا كان الأوروبيون الأكثر فائدة من حركية الدين في المنطقة. الروس بحجة الدفاع عن المسيحية في أرثوذكسيتها، والفرنسيون بحجة الدفاع عن المسيحية في كاثوليكيتها، والإنكليز بحجة الدفاع عن المسيحية في بروتستانتيتها، كانوا يتدخلون في أدق شؤون الدولة العثمانية. والدول الأخرى، بدورها، كانت تبحث عن حجج رديفة، للتغلغل في شؤون الدولة المذكورة، كالألمان والطليان، وغيرهم. والعثمانيون كانوا يحاولون تطبيق درس معكوس، أي

(1) المصدر نفسه، ص 270.
(2) المصدر نفسه، ص 274.

جعْل الدين الأداة المثيرة، لتحريك مشاعر المؤمنين، والضغط بها على المسلمين فيها، رغم إرادتهم، حيث يجري تضخيم الخطر وتهويله، للإسراع في تنفيذ الخطة المرغوبة. ولنا أن نتصور هنا طبيعة المجازر التي تعرضت لها شعوب المنطقة، باسم الدين على أكثر من صعيد، وأبناء القوميات المقهورة داخل حدود الدولة العثمانية وخاصة الأرمن والأكراد والأشوريين وغيرهم. (وغني عن البيان أن أشد أنصار الحلفاء حماسةً واندفاعاً كانوا أبناء الأقليات المسيحية الذين ظلت دعاية القناصل والمبشِّرين تنشط في وسطهم على مدى قرنين من الزمن)[1]. وقبل مجيء الأوروبيين، لم يكن الوضع كذلك؛ حيث (لم يلعب اختلاف الدين بين الأكراد المسلمين والأرمن المسيحيين أي دور... وتردد الأرمن على مساجد المسلمين وتردد الكرد على كنائس الأرمن: كان أمراً طبيعياً)[2].

ويمكن ذكر مثال آخر، ففي القدس وانطاكية وحلب وماردين وبيروت ومرسين والاسكندرونة في المشرق فضلاً عن سائر المناطق الريفية في آسيا الصغرى العثمانية.. كان يتعايش في سلام ووئام منذ أكثر من ألف عام الأتراك والأرمن والأكراد والآشوريون والعرب)[3].

ولكن مع اشتداد وطأة القهر وتنامي حالة العنف في المنطقة، أصبح الشعور القومي قوياً لاحقاً. ولهذا نجد كيف قام العرب بثورتهم ضد العثمانيين (وهم إخوتهم في الدين، وأعداؤهم العريقون والعتيقون في القومية) في عام 1916، وتنبه أبناء القوميات الأخرى لذلك، كالأرمن والآشوريين والأكراد. والعثمانيون أنفسهم استيقظوا على صوت أجراس القومية في امتدادها الأوروبي، ووفق هذا التصور يمكننا تفسير طبيعة قيام الدولة التركية الحديثة تحت قيادة (اتاتورك)، في طورانيتها المعروفة. ولم تعد الأخوة في الدين ترضي أحداً، حيث امتزج الدين بالقومية، بل أصبح داعماً لها، خاصة عندما انخرط الدين

(1) المصدر نفسه، ص 298.
(2) مظهر، د. كمال أحمد: كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة أحمد ملا عبد الكريم، ص 260.
(3) قرم، جورج: أوروبا والمشرق العربي، ص 35.

في لعبة التوازنات الدولية والإقليمية والمحلية، واكتسب أبعاداً أيديولوجية واضحة، ولعل حقيقة من هذا النوع، يمكن تلمسها الآن أكثر من أي وقت مضى.

إن أيديولوجيا بمثل هذه القوة، مشابهة لهذه ومستندة إلى غرائز عميقة، لا يمكن أن تنافس إلا من قبل أيديولوجيات أخرى عميقة الجذور أيضاً. وهذا هو الأمر فيما يخص الأيديولوجيا القومية، خصوصاً عندما تتعرض للقمع والاضطهاد. هذا ما حصل للقومية العربية في عهد جمال عبد الناصر في المرحلة الماضية. وهذا ما يحصل اليوم بالنسبة للأكراد والفلسطينيين المتشبعين بمطالبهم المأساوية والملحة. وخاصة عندما نجد القومية تتخفى تحت غطاء القومية الدينية... (إن القومية الإيرانية المحضة تبدو من حين لآخر في ساحة المعركة داخل جيش الإسلام الخميني الذي يمنع مبدئياً أية نزعة قومية)[1].

وبوسعنا مضاعفة الأمثلة، حول ذلك. وكيف يتم تحريك الدين في خدمة غايات ذات مرتكز قومي عرفي على أكثر من صعيد، أو لمحاربة القومية، في خدمة مصالح فئوية معينة، لأن الاعتراف بالقومية يلغي كل الامتيازات التي حصلت عليها هذه الفئة أو تلك. والتمعن في الممارسات التي تمارسها أنظمة المنطقة في عمومها، يوضح لنا إلى أي مدى يتم تحريك الدين، وتوظيفه أيديولوجياً محلياً ودولياً... وكل بقعة جغرافية لها خصوصيتها، يبرز فيها الدور بشكل مختلف، بحسب التركيب الديموغرافي للسكان، أو التركيب القبلي والطائفي والعصبوي فيها... خاصة عندما نجد أن توزيع مراكز القوى، في هذه البقعة، أو تلك، يتم وفق ميكانيكية سلطوية، تمتلك خبرة في هذا المجال، ومن خلاله وعبر الدين. وبدون مبالغة، يمكن القول أن لعبة السياسة، وتشابكاتها البنيوية، سواء في محيطها المحلي، أو في إطارها الدولي، تعتمد اعتماداً كبيراً، على تشغيل واستثمار الرأسمال الرمزي الديني.

(1) رودنسون، مكسيم: ظاهرة التزمت الإسلامية والمحافظة «محاولة إيضاح»، في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 33، المذكور ص 35.

ومن المؤكد أن الشعوب هي الخاسر الأكبر في هذا المجال وهي مسرح العمليات التي تُنفَّذ عليها اللعبة السياسية، وأداتها الضاربة، وأكباش الفداء لها، أولاً وأخيراً. . .

وهذا يؤدي إلى زيادة متنامية في مشاعر السخط، وتشظي العنف بأشكاله كافة، باسم الدين. ويكتسب الدين باطراد الوصفات ذات طبيعة عنيفة.

وحسب تعبير (دوركهايم)، فإن الحقيقة الأكيدة اليوم هي أن الجزء الذي يشمله الدين من الحياة الاجتماعية بات يتقلص أكثر فأكثر، في حين كان، في الأصل، يشمل كل شيء)[1].

هل هذا يعني، أن الدين سينسحب من الحياة اليومية للإنسان؟

ليس هذا ما نقصده ـ إن ما نريد قوله وتأكيده، هو أن الدين الذي يزداد التصاقاً بالتصورات المتخيلة والرهانات السياسية، سيتعرض لكل ما من شأنه إبعاده عن العلامة الكبرى الفارقة التي يعرّف بها، وهي إشعار الناس، بدون تمييز بين إنسان وآخر، بوحدة أصلهم.

وهذا هو الرهان الكبير بالنسبة للديانات كلها، وخاصة المسيحية والإسلام، أكثر من أي يوم مضى، أي تأكيد ديموقراطية الانتماء إلى الأصل الواحد، وأخوة الانتساب إلى الأب الواحد (كلكم لآدم، وآدم من تراب)، وهذا لن يتم إلا من خلال ممارسات فعَّالة، ومثمرة إنسانياً. فهل توجد الاستعدادات لدى (أولي الأمر)، تلك التي تجعل الدين لله والوطن للجميع) بالفعل؟

---

(1) نقلاً، عن «دانيال هرفيو، ليجيه» في المصدر المذكور، ص 58.